

التقوى مقياس للتفاضل والتنافس



يقول تعالى: (يَأْتِيهَا النَّاسُ اتِّقُوا رَبَّكُمْ) و(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاهُ). حينما يأتي القرآن الكريم بمقياس التفاضل على أساس التقوى، ليؤسس ويدعو إلى حضارة تُلغي الطبقات والفوارق في المجتمعات والشعوب، حتماً سيقودنا هذا المبدأ إلى التأكيد على معرفة ماهية التقوى؟

إنَّ القيمة الأساسية في حياة الإنسان هي «التقوى» التي تتيح درجة التنافس والتفاضل، وتتيح الالتزام بأوامر الله تعالى، وبالتالي تخلق إنسان سوي مستقيم، لا يحتاج إلى حسب أو نسب أو مال أو شكل يقول: «مه أمام الله»، مادام هو قادر على ذلك بنفسه وفعله وإيمانه وعقيدته. فالتقوى هي الدعوة التي يدعو الله إليها عباده في أغلب الآيات، لممارستها كأسلوبٍ تربوي في نطاق العمل الإنساني، من خلال مراقبة الله والإحساس العميق بوجوده. أجمل ما يوثق في التقوى تعريف الامام علي (عليه السلام) لها إذ يقول: «هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل»، أو يصفها بأبسط ما يجسدها في الواقع: «بأن يراك الله حيث أمرك، ويفتدك حيث نهاك». إنَّ الإسلام لا يرى في التقوى تقييداً للحرية، بل على العكس من ذلك، يرى أنَّها هي التي تمنح الإنسان حرّيته من شهواته وغرائزه، يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): «فإنَّ تقوى الله مفتاح سداد، وذخيرة معاد، وعتق من كلِّ مَلَاكَة، ونجاة من كلِّ هلكة».

إنَّ لتقوى الله تعالى آثار ونتائج عديدة في الدُّنيا، منها، أنَّها تحفِّز الإنسان على الأخلاق الحسنة، عن الإمام علي (عليه السلام): «التقوى رئيس الأخلاق». ومنها، أنَّها تبعث الرزق، وتمكِّن الإنسان من تجاوز العقبات والأزمات، والتغلب على مشاكل الحياة، يقول تعالى: (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) (الطلاق/ 3-2)، ويقول تعالى: (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا) (الطلاق/ 4). أيضاً للتقوى نتائج أخروية جليلة جداً، منها: الأجر العظيم جزاؤها الفوز الجنة، قال تعالى: (لِلَّذِينَ أَتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ) (آل عمران/ 172)، وقوله تعالى: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ) (الطور/ 17). وعن الإمام زين العابدين (عليه السلام): «شرف كلِّ عملٍ بالتقوى،

وفاز مَنْ فاز من المتّقين، قال ﷻ تبارك وتعالى: (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا)». إذن فالتقوى هي الجوهر والغاية والحصيلة من كلّ جوانب الدّين عقيدةً وعبادةً، ونظاماً؛ ورائع ما قاله أمير المؤمنين عليّ (عليه السلام): «التقوى منتهى رضا ﷻ من عباده وحاجته من خلقه».

وعبادات الإسلام ليست مقصودة بذاتها، إنّما هي برامج ووسائل لتمكين حال التقوى في نفس الإنسان، فيقول ﷻ تعالى في الصلاة: (إِنَّ الصَّلَاةَ تَذْهَبُ عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) (العنكبوت/45). فهي تهدف إلى خلق الوازع الذي يردع عن الانحراف، وإذا لم يتحقّق هذا الهدف، فلا قيمة لتلك الصلاة. كما روّى عن الرسول الأكرم (صلى ﷻ عليه وآله وسلم) أنّّه قال: «مَنْ لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من ﷻ إلاّ بُعداً». والصوم حكمة تشريعية للوصول إلى درجة التقوى. يقول ﷻ تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة/183). والحجّ ما المقصود بمناسكته وشعائره؟ هل ﷻ تعالى غرض فيه؟ أم أنّّه عزّ وجلّ في الحديث عن الأضحية في الحجّ يُشير إلى مَلَكة التقوى، وما يُسمّى بالوازع الديني في النفس أن تُثمر هذه المَلَكة وتُقوّى عن طريق العبادات والمعاملات التي يسعى إليها المؤمن للوصول إلى مَلَكة التقوى.

إنّ ﷻ تعالى يريدنا أن نتقرّب إليه، ونحن عندما نصلي ونصوم ونحجّ ونعتمر إنّما نضمر في أنفسنا أنّنا نفعل ذلك قربةً إلى ﷻ، فعليّنا أن نعمّق إحساسنا بالحاجة إلى القُرب من ﷻ تعالى والحصول على رضاه ولا شيء إلاّ رضاه، وعليّنا عندما نعيش في الدُّنيا أن نعرف أنّ الدُّنيا ليست دار بقاء، بل أن نحدّق دائماً بالآخرة، كما قال قوم قارون له: (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ الدُّنْيَا الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ ﷻ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ) (القصص/77).